السورة السادسة

النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

هذه هي السورة الخامسة بحسب الترتيب التراجعي لسور القرآن؛ التي نحاول اكتشاف جوانب التجديد الإعجازيّ فيها. وسنتوقّف فيها كالعادة عند خمس محطّاتٍ يتوزّعها ٢٤ موقعاً استطعنا أن نتبيّنها في ١٩ كلمةً تتألّف منها السورة.

وتتركّز الشخصيّة اللغويّة للسورة في مقدّمتها الشرطيّة، إذ تختلف مواصفات الأداة (إذا) فيها عن مواصفات شبيهاتها في القرآن الكريم أو غيره، ممّا سينعكس طيفه بعد ذلك على كامل السياق في السورة.

١- الألفاظ والمصطلحات:

التجديد في ألفاظ القرآن يمكن أن يقع في ثلاثة أشكالٍ مختلفة، كما عرفنا، اجتمعت كلّها في هذه السورة.

فقد يكون اللفظ قرآنيّاً خالصاً لم تعرفه العربيّة من قبل، كاللفظين: سَبِّحْ، توّاباً. وقد يكون اللفظ معروفاً لدى العرب ولكن القرآن أعطاه معنىً اصطلاحيّاً جديداً، كالألفاظ: الفتح، يدخلون، أفواجاً. وقد يتحقّق التجديد في استعمال الأداة النحويّة بطريقةٍ مختلفة، كما في الأداتين: إذا، كان.

وإذن، فالألفاظ والمصطلحات القرآنيّة الجديدة تتركّز في المواقع السبعة التالية:

١- إذا:

يُجمع النحاة على أنّ (إذا) الشرطيّة تختصّ بالزمن المستقبل، فنحن نقول في إعرابها عادةً: ظرفٌ لِما يُستقبَل من الزمان يتضمّن معنى الشرط. وحين اعترفوا، مع ذلك، بأنّها قد تأتي للزمن الماضي، لم يجدوا شاهداً على ذلك، فيما أعلم، إلاّ في القرآن.

ومع ذلك فما جاؤوا به من شواهد قرآنيّةٍ اطّلعتُ عليها لا ينسجم، في نظري، مع معنى الشرطيّة، أو لا يشير إلى الزمن الماضي. لقد استَشهد المُراديّ على ذلك في كتابه (الجَنَى الداني) [ص: ٣٧١] بقوله تعالى:

- ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة: ٩٢]

فلا أرى في (إذا) هنا معنى الشرط وإنّما اقتصرتْ على الظرفيّة، فما أسهل أن نستبدل بها الظرف (حين) فنقول: حين يأتونك لتحملهم. وهي، إلى جانب ذلك، لا تختصّ بالزمن الماضي، نعم إنّها استندت إلى واقعةٍ جرت قبل نزول السورة، ولكن لتشرّع قاعدةً للتعامل في المستقبل مع أولئك الذين يَصدُقون اللهَ في عزمهم على الجهاد ثم لا يجد القائد لهم ما يَركبونه من خيلٍ أو يحملونه من سلاح.

ويستشهد المُراديّ أيضاً بقوله تعالى:

- ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة: ١١]

إنّ (إذا) في هذه الآية لا تنحصر في الزمن الماضي، حتّى إن نزلت في واقعةٍ حدثت في حياة الرسول ﷺ، وإنّما، شأنها شأن كثيرٍ من آيات القرآن، تمتدّ إلى الحاضر والمستقبل، فالآية تتحدّث عن حالةٍ مستمرّةٍ يمكن أن تحدث كلّ يوم.

أمّا (إذا) في هذه السورة فتختصّ بحالةٍ تاريخيّةٍ حدثت ولم تتكرّر. إنّه الفتح الذي منّ الله به على رسوله، سواءٌ بمجيء الأقوام والقبائل إليه مبايِعةً

بالآلاف، بعد أن عَقد صلح الحديبية مع مشركي مكّة، حسب رأي بعضهم، أو بفتح مكّة من غير قتال في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، واستقرار الأمن بعد ذلك الفتح في الجزيرة العربيّة، وبدء مرحلةٍ جديدةٍ من تاريخ الدولة الإسلاميّة، حسب رأي آخرين.

وفي الحالين تكون (إذا) قد اختصّت في السورة، لأوّل مرّة، بالماضي دون الحاضر أو المستقبل، خلافاً لكلّ الأعراف النحويّة المتّبعة مع هذه الأداة. إنّه معنىً جديدٌ أعطي لها، ولو شئنا التعبير عنه بلغتنا لقلنا: **أمّا وقد** جاء نصر الله والفتح .. فسبّح بحمد ربّك ..

ولا أجد (إذا) أخرى في القرآن يمكن أن نجري عليها مثل هذا الاستبدال، ولا في نصوص الحديث الشريف، ولا في لغتنا البشريّة على امتداد تاريخها.

٢- الفتح:

هذا مصطلحٌ إسلاميٌّ جديدٌ كلّياً على العرب. ربّما عرفوا المصدر (فتْحٌ) من الفعل (فَتَحَ) الذي هو عكس (أغلق) ولكنّهم، كما يظهر من قراءتنا للشعر الجاهليّ، لم يعرفوا هذا الجذر أبداً بمعنى الانتصار أو الاستيلاء على المدن أو البلدان أو القلوب.

ورغم خلوّ الشعر الجاهليّ كلّياً من هذا الاستعمال؛ نجده يتكرّر في القرآن الكريم بهذا المعنى، وبصيَغه الاسميّة أو الفعليّة المختلفة، ١٢ مرة.

لقد استخدم العرب بدلاً من ذلك الفعلَ (انتصر) والفعل (غزا) ومشتقّاتهما. وأوّل مرّة يصادفنا هذا الاستعمال في الشعر العربيّ بالمعنى القرآنيّ، كان عند الشاعر الإسلاميّ كعب بن زهير (ت ٢٦هـ) في قوله:

ضربناهمْ بمكّةَ يومَ فتحِ النـــ ـــبيِّ الخَيرِ بالبِيضِ الخِفافِ

ثمّ يزدهر الاستعمال الجديد بعد ذلك، فيستخدمه الشعر العربيّ حتى نهاية العصر الأمويّ ١١ مرّة على الأقلّ. كما يغدو جزءاً من لغة الحديث الشريف في معرض الحديث عن الحروب والغزوات والانتصارات.

٣- يدخلون:

اعتاد العرب قبل الإسلام استخدام الفعل (صبأ) للتعبير عن اعتناق دينٍ جديد، ولذلك كثيراً ما أطلق المشركون على الرسول ﷺ لقب (الصابئ).

ونستخدم اليوم غالباً الفعل (اعتنق) أو (أسلم) للتعبير عن هذا المعنى، ولكنّ القرآن استعمل التعبير (دخل في) لأوّل مرّة للتعبير عن هجر الوثنيّة والإيمان بالعقيدة الجديدة.

والغريب أنّ هذا الاستعمال اقتصر على هذه المرّة الواحدة في القرآن، رغم ورود الفعل (دخل) ومشتقّاته فيه ١٢٧ مرّة، على حين يخلو تماماً من الفعلين (صبأ) و (اعتنق) ومشتقّاتهما، ويحلّ محلّهما على الأغلب الأفعال (آمن) و (اتّبع) و (اهتدى) و(أسلم) أو غيرُها، كما في الآيات التالية:

- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [البقرة: ١٣]
- ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٣٥]
- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ [البقرة: ١٦٥]
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٠]
- ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦]
- ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

- ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]
- ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]
- ﴿ لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ ﴾ [الرعد: ٣١]
- ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١]
- ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢]
- ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ ﴾ [الحُجرات: ١٧]

وربّما لا نلاحظ جدّة استخدام القرآن لهذا اللفظ بالوضوح الذي لاحظناه في استخدامه للفظ (الفتح) مثلاً، وهذا نتيجة لطغيان المعنى الشائع لهذا الفعل (دخل) في لغتنا اليوم على المعنى القرآنيّ في هذه السورة. ولا بدّ من التذكير من جديد؛ بأنّ اجتماع هذه الاستعمالات الجديدة بعضِها إلى جانب بعضٍ في سورةٍ قصيرةٍ كهذه؛ هو الذي يجعل من السورة خزّاناً من المفاجآت يتدفّق دفعةً واحدةً على العربيّ الأوّل بعناصره المثيرة المختلفة.

٤- أفواجاً:

مصطلحٌ قرآنيٌّ جديدٌ جاء فيه اللفظ لأوّل مرّةٍ في صيغة الجمع للتعبير عن اجتماع الكثرة مع الحركة والتتابع في الوقت نفسه: إنّ العرب يتحوّلون الآن، وبسرعة، قبائل وجماعاتٍ، باتجاه الدِّين الجديد.

لقد استعمله القرآن مرّتين فحسب، ولكنّنا لا نعثر عليه في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث الشريف، رغم أنّه يبدأ بالظهور في الشعر العربيّ مباشرةً بعد عصر النبوّة، فنعثر عليه ٦ مرّاتٍ على الأقلّ حتى نهاية العصر الأمويّ.

وفي لغتنا العاديّة يرِد مثل هذا اللفظ مزدوجاً عادةً إذا أردنا إظهار معنى التوالي والكثرة الذي قصدته الآية، فنقول: أفواجاً أفواجاً، أو: جماعاتٍ جماعاتٍ،

وهو أسلوبٌ متأخّرٌ لم أجده في التراث اللغويّ للقرون الإسلاميّة الأولى. ولا نجد اللفظ في صحيح الحديث الشريف إلاّ أن يأتي في سياقٍ قرآنيٍّ، كقوله ﷺ: "إن الناس دخلوا في دينِ اللهِ أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً".[1]

٥- فسبّح:

لفظٌ قرآنيٌّ آخر لم يكد يعرفه العرب قبل القرآن، ليس فقط بمعناه الإسلاميّ الذي استقرّ عليه فيما بعد، أي تنزيه الله عن أيّ نقصٍ أو ضَعف، بل في أيّ معنىً محتملٍ آخر.

وأوّل بيتٍ نعثر عليه فيه ينسب إلى ورقة بن نوفل (ت ١١ ق.ه) -لاحظ أنه قد توفّي بعد بدء نزول الوحي بعامين (بدأ الوحي عام ١٣ ق.ه)- كما يُنسب البيت أيضاً، بالرواية نفسها تقريباً، إلى الشاعر المخضرم أميّة بن أبي الصلت (ت ٥ه)، وكلا الرجلين حُمل عليهما ما لم يُحمل على غيرهما، ممّا يدعونا إلى الشكّ في نسبة البيت وزمنه، فضلاً عمّا يحويه من إشاراتٍ قرآنيّةٍ واضحة، كالعرش وجبل الجوديّ، وما فيه من رقّة النسج وبساطة اللغة، ممّا لا يتمشّى مع اللغة التي عرفناها للشعر الجاهليّ:

سبحانَ ذي العرشِ سبحانٌ نعوذُبه وقبلُ قد سبّحَ الجُوديُّ والجُمُدُ

ورغم ندرة وجوده -إن كان قد وُجد مطلقاً ولو لمرّةٍ واحدةٍ في الشعر الجاهليّ- يفاجئ القرآنُ العرب باستعمال هذا الفعل مع مشتقّاته ٩١ مرّةً على مساحة سوَرِهِ المختلفة، فضلاً عن تكرّر وروده في الحديث الشريف، فقد غدا التسبيح الآن جزءاً من العبادة اليوميّة للمسلم.

---

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٤٧، حديث رقم ١٤٦٩٦.

obeikan.com

٦- كان:

سبق أن أكّدنا تفرّد القرآن الكريم باستعمال الفعل (كان) بمعنى (إنّ) أو (كائنٌ) ١٩٠ مرة، كما بيّنا أنّ اللغة العربيّة تخلو حتّى الآن، مثلما خلا الحديث الشريف، من هذا الاستعمال الرائد والمتفرّد للفعل.

لقد كان الله تعالى توّاباً، وهو كذلك الآن، وسيظلّ هكذا من الأزل إلى الأبد، خلافاً لما يتّصف به الفعل (كان) في لغتنا عادةً من اختصاصه بالزمن الماضي.

ومن المثير للاهتمام حقّاً أن أبا بكرٍ الرازي يتنبّه في تفسيره الكبير إلى الوضع الجديد لهذا الفعل في القرآن، فيؤكّد تفرّد الكتاب الكريم باستعمالاته له، وهو اعترافٌ يصعب انتزاعه حتّى الآن من معظم اللغويّين والنحويّين.

يذكر الرازي في تفسيره أنّ هذا الفعل يأتي في القرآن على خمسة أوجه:

بمعنى الأزل والأبد، كقوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

بمعنى المضيّ المنقطع، وهو الأصل في معناها، نحو ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾

بمعنى الحال، نحو ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

بمعنى الاستقبال، نحو ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾

وبمعنى (صار) نحو ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]

ثم يضيف إليها الرازي ثلاثة أوجهٍ أخرى من نوعٍ مختلف:

بمعنى (ينبغي) نحو ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾

بمعنى (حضر) أو (وُجِد) نحو ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ و ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً ﴾

للتأكيد، وهي الزائدة، ومنه ﴿ وَمَا عِلِمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2]

---

(١) والحقّ أنّ بإمكاننا إحلال (إنّ) محلّ (كان) في جميع هذه الآيات تقريباً، ما عدا الثانية طبعاً إذ جاءت فيها بمعناها الأصليّ.

(٢) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص٣٤١-٣٤٢.

٧- توّابا:

هذا اللفظ من أسماء الله الحسنى. وجِدّته ليست في صياغته الجديدة (فعّال)، أي مبالغة اسم الفاعل، فحسب، بل في أنّه أُطلق هنا على المَتُوب إليه وليس على التائب.

فحين يكثر الخاطئ من الخطايا، ثمّ من التوبة بعد كلّ خطيئة، يرتفع من مستوى (تائب) إلى مستوى (توّاب). ولكنّ القرآن استخدمه هنا للدلالة على من يقبل التوبة مرّةً بعد أخرى من التائب، وهو الله، فنحن نتوب إليه، وهو يتوب علينا.

إنه إذن اسم فاعلٍ ولكنّه يقع على المفعول، وهو لفظٌ قرآنيٌّ جديدٌ لم يعرفه العرب لا بهذا المعنى، ولا بهذا اللفظ، فلا نعثر عليه مطلقاً في الشعر الجاهليّ.

وفي الحديث الشريف يقتصر إطلاق هذا الاسم أيضاً على البشر التوّابين، إلاّ حين يُذكر بين الأسماء الحسنى لله تعالى، ومن ذلك قوله ﷺ:

- اللهمّ اجعلْني من التوّابين واجعلْني من المتطهّرين[١]
- وخيرُ الخطّائين التوّابون[٢]
- إنّ اللهَ تعالى يُحبُّ العبدَ المؤمنَ المُفَتَّن التوّاب[٣]
- جالِسوا التوّابين فإنّهم أرقُّ أفئدةً[٤]

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج١، ص٧٨، حديث رقم ٥٥.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٦٥٩، حديث رقم ٢٤٩٩.

(٣) الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج١، ص٨٠، حديث رقم ٦٠٥.

(٤) ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد. **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، ط. ١، ١٤٠٩هـ، ج٧، ص٩٦، حديث رقم: ٣٤٤٦٥.

obeikan.com

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- جاء نصر الله:

التعبير المعتاد لهذا المعنى في لغتنا هو (تحقَّقَ النصر) أو (تمّ النصر). وربّما اكتفينا بلفظٍ واحدٍ فقلنا: (انتصرنا).

ولكنّ "إلهيّة التعبير" هنا استدعت استخدام الفعل (جاء) للإشعار بـ"الإرسال". فالنصر عند البشر "يتحقّق" أو "يُنال" ولكنّه لدى من يمنح النصر "يُرسَل" فـ"يأتي" أو "يجيء" أو "يتنزّل" من عنده إلى الأرض.

إنّه الآن في حركةٍ انتقاليّةٍ تتحرّك به من السماء هابطةً إلى الأرض، وهذا يبعث في الفعل وفاعله معنىً متميّزاً وحياةً جديدةً أهّلتهما لأن يكونا صورةً بيانيّةً يمكن أن تنضوي تحت فنّ الاستعارة؛ إذ يُشَبَّه فيها النصر، وكذلك الفتح بعده، بإنسانٍ يجيء، وهو ما ذهب إليه بعض اللغويين في تحليل الآية[1].

وأرى أنّ فعلاً قرآنيّاً كهذا ينبغي أن نُخرجه من دائرة المجاز، لأنّ مجيء كلّ شيءٍ هو حدوثه، وحدوثه لا يكون إلاّ من الله، يرسله فيجيء أو يَحدث، وهكذا النصر. إنّها حقيقةٌ مجرّدة، فلا حاجة إذن للتأويل المجازيّ في مثل هذا الموضع.

٢- الفتح:

عرفنا أنّ القرآن الكريم قد أعطى هذا اللفظ معنىً جديداً لم يعرفه العرب من قبل، وهو النصر وزوال العقبات والصعاب.

وما نريد إثباته الآن، إضافةً إلى ذلك، هو تميّز علاقة هذا اللفظ بما قبله أو بعده. لقد جاء هنا معرَّفاً بال، ومجرّداً من الإضافة أو الوصف.

---

(١) الدرويش، محيي الدّين، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، دمشق وبيروت: دار اليمامة ودار ابن كثير، ١٩٩٩م، ج٨، ص٤٣٦.

إنه لم يقل مثلاً:

فتحُ الله، أو:

الفتح المبين، أو:

فتحُ القلوب، أو:

فتحُ مكّة،

بل اتخذ اللفظُ شخصيّته المستقلّة بحيث لا يعتمد على غيره عند استعماله، فما أن يقال: (الفتح) حتى ينصرف الذهن إلى النصر الخاصّ بالمؤمنين على أعدائهم، أو دخولهم البلد المفتوح، حرباً أو سلماً.

وورود اللفظ ٦ مرّاتٍ في القرآن الكريم، هكذا معرّفاً بـ (ال) ومجرّداً من الوصف أو الإضافة، يؤسّس شخصيّته الإسلاميّة الجديدة.

٣- نصرُ الله:

هذا تعبيرٌ إسلاميٌّ جديدٌ لم يعرفه العرب مِن قبل. ولأنّهم لم يعتادوا نسبةَ النصر إلى الله فبدهيٌّ أنّنا لن نتوقّع منهم إضافة لفظ (النصر) إليه.

٤- نصر الله والفتح:

إنّ تجرُّد لفظ (الفتح) من الإضافة، بعد عطفه على لفظٍ قبله مرتبطٍ بمضافٍ إليه، ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أوجد في التعبير مُناخاً غريباً على الجملة العربيّة.

فقد تعوّدت أذنُ العربيّ عطف الاسم المجرّد على الاسم المجرّد، والاسم المضاف على الاسم المضاف، فنقول مثلاً:

نصرُ الله وفتحُه، أو:

النصر والفتح،

كما نقول:

واجبات الإنسان وحقوقه،

ولا نقول:

واجبات الإنسان والحقوق،

وكذلك نقول:

شخصيّة المرء وأخلاقه،

ولا نقول:

شخصيّته والأخلاق،

ممّا يمنح هذا التعبير تميّزه، ويؤكّد اختصاصه بلغة القرآن الكريم وحدها.

٥- فسبّح بحمد ربّك:

سواءٌ كان الفعل (سبّح) جديداً على العرب، وهو الأرجح، أو كانوا قد عرفوه قبل ذلك، فسوف يفاجئهم هنا بتعدّيه إلى (الحمد) بدلاً من تعدّيه إلى المحمود متمثّلاً عادةً بلفظ الجلالة أو بأحد أسمائه تعالى، على الشكل الذي نجده عليه في آياتٍ أخرى، مثل:

- ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٩٦]
- ﴿ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴾ [طه: ٣٣]
- ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤]

لقد تعدّى الفعل إلى اسم الله بالباء في الآية الأولى، وبنفسه في الثانية من غير الاستعانة بأيّ حرف، وباللام في الثالثة، إلاّ أنه تعدّى في الآيتين الأخيرتين إلى ذاته تعالى (نُسَبِّحَكَ ، تُسَبِّحُ لَهُ) على حين تعدّى في آية سورة (النصر) إلى حمد الله وليس إلى الله. ويتكرّر هذا النوع من التعدّي في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

٦- إنّه كان توّابا:

لكي نلمس حقيقة التفرّد اللغويّ لهذه العبارة بإمكاننا أن نتصوّر أنّنا نحن الذين سنؤدّي معناها بلغتنا الخاصة، أو فلنقل: بلغة أي إنسانٍ عربيّ، بل بلغة الرسول ﷺ نفسه.

فكيف ستبدأ الجملة عندنا؟ لا شكّ أننا سنقول (مع الحفاظ على الألفاظ القرآنيّة):

فإنه كان توّابا، أو:

فقد كان توّابا

رغم أنّ العبارة هي جزءٌ من آيةٍ، وليست آيةً مستقلّةً بذاتها.

وبمعنىً آخر، إننا لن نستغني في لغتنا عن حرف الفاء في مطلع الجملة، لأنّ هذه الفاء ستربطها بما قبلها، وستمنحها معنىً تفسيريّاً أو سببيّاً، فنحن نسبّح الله ونستغفره، لأنّنا نعلم أنّه يَقْبل التوبة من التائبين والمستغفرين.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة:

١ - إذا جاء نصر الله والفتح:

إنّ استخدام (إذا) للدلالة على الزمن الماضي في هذه الآية، وإضافة (النصر) إلى (الله)، وكذلك عطف الاسم المجرّد من الإضافة (الفتح) على الاسم المضاف ﴿نَصْرُ ٱللَّهِ﴾، وبهذه البِنية اللغويّة الخاصّة، يجعل منها كلّها سبيكةً لغويّةً قرآنيّةً جديدةً؛ لها بناؤها الإيقاعيّ الخاصّ، وشخصيّتها المستقلّة عن السبائك اللغويّة العربيّة التقليديّة، بل ربّما عن سائر السبائك القرآنيّة.

٢- فسبّح بحمد ربّك:

سبيكةٌ قرآنيّةٌ خاصّةٌ أخرى تتألّف من فعل تسبيح يتعدّى بالباء إلى مصدرٍ نقوم بأداء فعله لله: (الحمد)، ويليه اسمٌ من أسمائه تعالى (الربّ)، وقد أضيف إلى

ضمير المخاطب (الكاف)، وهذا الأخير عائدٌ على فاعل الفعل الذي افتتحت به الجملة. هل نتخيّل نحن أن نقول مثلاً:

فاذكرْ بثناء معلّمك؟ أو:

فعظِّم بشكر مَلِكك؟

٣- إنّه كان توّابا:

هذا البناء اللغويّ الذي يبدأ بالأداة (إنّ) مع اسمها (الهاء) يتلوها الفعل الناقص (كان) -الذي هو أيضاً بمعنى (إنّ)- ويليه خبره المنصوب (توّاباً) -في صيغةِ مبالغة اسم الفاعل (فعّال)- أضحى بناءً قرآنيّاً مميّزاً، لأنّه يتكرّر فيه كثيراً، مع اختلاف الخبر أحياناً بين مبالغة اسم الفاعل وغيرها، كقوله تعالى:

- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]
- ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦]
- ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]

رابعاً: مواقع منفتحة

١- الفتح:

إنّ تعدّد المعاني التي يمكن أن يحملها هذا اللفظ القرآنيّ الجديد، كالنصر على الأعداء، وفتح مكّة، وانفتاح القلوب للدّين الجديد، وانفتاح البلدان معها، ودخول الناس في الإسلام جماعاتٍ وقبائل، يضفي عليه طبيعةً ذاتَ ظلالٍ تسمح بتصنيفه بين الألفاظ ذات الأبعاد المتعدّدة.

فهو قد يعني الحرب، ولكن قد يعني السلم والأمان أيضاً، وهو أيضاً بمعنى (فَرَجٌ) عكس (ابتلاء وشدّة)، وبمعنى (كشْف) عكس (حَجب ومنْع وانحباس)،

فحيث يدخل الإسلام يدخل الأمان والسلام والخير والبناء، فكأنّ أبواباً من كلّ ذلك قد "فُتحت" على الناس بفتح المسلمين لبلدهم، وهو في الوقت نفسه فتحٌ مادّيٌّ لأبواب المدن والقلاع والبلدان التي كانت مستعصيةً قبل ذلك.

٢- ورأيت:

هذا الفعل يحمل أيضاً أكثر من احتمال. فالمخاطَب ليس محدّداً؛ إذ يمكن أن يكون الرسول ﷺ، كما يمكن أن يكون أيّ مسلم عاش أيّام الانتصارات الكبيرة التي حقّقها المسلمون أواخر عهد النبوّة، بل أيّ مسلم يعيش أيّ انتصارٍ آخر يتحقّق للمسلمين على مرّ العصور، في الماضي والحاضر والمستقبل.

ثمّ إن الفعل قد يعني التأكيد والرؤية الحقيقيّة، وهي لمن شاركوا بأنفسهم في القتال والنصر، أو عاشوا ذلك النصر على الأقلّ، وقد يعني مجرَّد التذكير بذلك كما يمكن أن نفهمه اليوم ويفهمه كلُّ من لم يعاصر تلك الانتصارات النبويّة الأولى.

٣- فسبّح بحمد ربّك:

إنّ فعل التسبيح وحده، مجرّداً من ملحقاته هنا، فعلٌ أعطاه المفسّرون أكثر من معنىً. فهو في الأساس ذكرٌ لله، ولكنّه أيضاً تنزيهٌ له وإعلاءٌ لشأنه وتفكّرٌ وتعجّبٌ بخَلقه وبشأنه معهم، وهو أيضاً اسمٌ لصلاةٍ خاصّةٍ قيل إنّ الرسول ﷺ قد صلاّها وقت الضحى يوم الفتح ثماني ركعاتٍ، وسمّاها بعضهم صلاة الفتح.

فإذا ما اقترن الفعل بملحقاته ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أعطته هذه الملحقات مزيداً من الألوان والإيحاءات، وساعدت على طرحِ المزيد من التصوّرات والمزيد من التساؤلات: فما الفرق يا ترى بين تسبيح الله والتسبيح له والتسبيح باسمه والتسبيح بحمده؟!

٤- واستغفره إنّه كان توّابا:

إن دعوة الله لرسوله، وكذلك لكلّ مسلم، أن يشكره ويسبّحه على ما رزقه من نصرٍ على الأعداء، ودخولٍ للناس في دينه بالآلاف، أمرٌ عاديٌّ وبدهيّ، ولكنّ دعوته تعالى لنبيّه ﷺ بعد ذلك، وللمسلمين، بالاستغفار والتوبة تبدو أقلّ وضوحاً وأبعثَ على التساؤل: وممّ يستغفر الرسولُ الكريم أو يتوب فيُتاب عليه؟

لقد حاول المفسّرون أن يضعوا إجاباتٍ غير مباشرةٍ لهذا التساؤل، ووجدنا أكثر من حديثٍ نبويٍّ يشير إلى أنّ الأمر إنّما هو إشارةٌ من الله لنبيّه بقرب النهاية، وإيذانٌ له باكتمال رسالته ودنوّ أجله، حتى نُقل عن ابن مسعود أنّ هذه السورة تسمّى (سورة التوديع).

توفّي الرسول ﷺ بعد عامين من هذه الانتصارات والفتوحات.

خامساً: جوامع الكَلِم:

١- نصر الله:

لقد أصبح هذا التركيب من مفردات قاموسنا اليوميّ بعد نزول القرآن، ولا سيّما في معرض حديثنا عن الحرب والجهاد والشهادة، فنحن نتفاءل بإسناد النصر إلى الله. كما سرى هذا التركيب بعد ذلك في قاموس أسماء الأعلام العربيّة، بحيث أطلقه كثيرٌ من الآباء اسماً على أبنائهم.

٢- الفتح:

هذا لفظٌ واحدٌ وليس عبارةً كاملة، ولكنّه أصبح يحتلّ في قاموس العربيّة مكاناً واسعاً بعد نزول القرآن، واشتُقّت منه أفعالٌ ومصادر وجموعٌ وعناوين كُتبٍ، فقالوا: فتَح الله عليه في رزقه، وفتح الله عليه في الكتابة، والفتح العربيّ للأندلس، والفتوحات الإسلامية، وفتْح الفتوح، ووُضعت كُتُب: فتوح البلدان، والفتوحات المكّية، وتفسير فتح القدير... وغير ذلك كثير.

٣- يدخلون في دين الله أفواجا:

إنّها عبارةٌ أضحت تتردّد في كلّ مناسبةٍ يدخل فيها الإسلامَ مجموعاتٌ من الناس، وفي كلّ حدثٍ يتحقّق فيه للإسلام انتصارٌ أو مكاسب كبيرة، أو يزداد عدد معتنقيه في بلدٍ من البلدان، أو في العالم كلّه.

٤- دين الله:

وهو تعبيرٌ لم نعد نستغني عنه في أيّ حديثٍ أو دراسةٍ عن الإسلام أو الأديان عامّةً، والأديان السماويّة خاصّةً.

obeikan.com